مجلة العلوم العربية والإنسانية
جامعة *القصيم*، المجلد (11)، العدد (1)، ص ص 33-62، (محرم 1439هـ/ سبتمبر 2017)

نماذج من الاستعارة التَّصريحيَّة الأصليَّة في التَّنزيل
(الوظيفة والجمال)

د. صدِّيق مصطفى الريَّح
الأستاذ المشارك بقسم اللغة العربية
كلية الآداب – جامعة الخرطوم

ملخص البحث. وقف هذا البحث على بعض نماذج الاستعارة التَّصريحيَّة الأصليَّة دون القصد إلى الحصر، أو التَّقيُّد بمصطلح قديم أو حديث، إلَّا بما يخدم غرض البحث، الَّذي مداره بيان وظيفة الاستعارة، وأسرارها البلاغيَّة، مع محاولة إبراز جماليَّات تلك الاستعارات. وقد انتهت إلى نتائج من أهمِّها:

- وجود حكمة تقتضي دائماً العدول إلى الاستعارة، دون التَّعبير الحقيقيّ.
- وقف بعض الأوائل والمعاصرين على عدد من الفوائد الَّتي لا تؤدِّيها الحقيقة، ممَّا يجعل الاستعارة أولى من الحقيقة.
- وظيفة الاستعارة وجمالها أمران متداخلان، في مواضعها من القرآن.
- من وظائف الاستعارة القرآنيَّة، وأسرار جمالها: أداء المعاني بدقَّة، الإيجاز مع الإيحاء بمعانٍ إضافيَّة، التَّصوير، المبالغة في أداء المعنى، توكيد المعنى المراد، البيان والإيضاح، إضفاء الجدِّة (تجديد معاني الألفاظ)، تحسين المعرض، التَّأثير في السَّامع، رسم نموذج بشريّ.

مقدمة

يقول العلويّ عن آيات القرآن: " فإنَّك تجد كلَّ جملة منها، بل كلُّ كلمة من كلماتها تحتوى على لطائف، وليس في آيِ القرآن المجيد حرف إلَّا تحته سرٌّ ومصلحة " [1]، ومن يتدبَّر الآيات القرآنيَّة الَّتي جاءت فيها الاستعارة مثلاً، أو ينظر إلى ما ساقه العلماء في التَّعليق عليها، لا تفوته ملاحظة صحَّة ما ذهب إليه العلويّ، من وجود حكمة تقتضي دائماً العدول إلى أسلوب المجاز، فجاءت كلُّ استعارة في القرآن واقعة موقعاً تقتضيه حكمة البيان، حيث تؤدِّى معنى جليلاً وشريفاً لا يمكن أن تؤدِّيه غيرها من الكلمات، فيكون بذلك العدول لتحقيق مقاصد بلاغيَّة وجماليَّة لا نجدها في التَّعبير الحقيقيّ، وهذا ممَّا التفت إليه بعض الأوائل، وذلك أنَّ القرآن لا يستعير من أجل الاستعارة، بل ينحو إلى تأدية عدد من الفوائد والأغراض الَّتي لا تؤدِّيها الحقيقة، ممَّا يجعل الاستعارة أولى من الحقيقة بالاستعمال في مثل هذه الحالات، وهذا ما أشار إليه بعض العلماء، واشترطوه في استخدام الاستعارة، وجاء وافياً به القرآن الكريم، وممَّن أشار إلى هذا الآمديّ في قوله: " لأنَّ الكلام إنَّما هو مبنيٌّ على الفائدة في حقيقته ومجازه، وإذا لم تتعلَّق اللَّفظة المستعارة بفائدة في النُّطق، فلا وجه لاستعارتها". [2]

وكذلك أبو هلال العسكريّ الَّذي يرى أنَّ الاستعارة المصيبة لولا أنَّها تتضمَّن ما لا تتضمَّنه الحقيقة من زيادة فائدة لكانت الحقيقة أولى منها استعمالاً، كما التفت إلى جملة من فوائد الاستعارة ونصَّ عليها في قوله: " الاستعارة نقل العبارة من موضع استعمالها في أصل اللُّغة إلى غيره لغرض، وذلك الغرض إمَّا أن يكون شرح المعنى، وفضل الإبانة عنه، أو تأكيده والمبالغة فيه، أو الإشارة إليه بالقليل، أو تحسين المعرض الَّذي يبرز فيه، وهذه الأوصاف موجودة في الاستعارة المصيبة". [3]

---

(1) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة، العلويّ، 3 / 230.

(2) الموازنة بين الطائيين، الآمدي، 1 /191.

(3) الصناعتين، أبو هلال العسكري، ص 268.

ومن المعاصرين الرَّافعيّ الَّذي يقرن عدول القرآن إلى الأساليب البلاغيَّة ومنها الاستعارة بقضية الإعجاز، يقول: " ولسنا نقول: إنَّ القرآن جاء بالاستعارة لأنَّها استعارة، أو بالمجاز لأنَّه مجاز، أو بالكناية لأنَّها كناية، أو ما يطَّرد مع هذه الأسماء والمصطلحات، إنَّما أريد به وضع معجز في نسق ألفاظه، وارتباط معانيه على وجوه السِّياستين من البيان والمنطق، فجرى على أصولهما في أرقى ما تبلغه الفطرة اللُّغويَّة على إطلاقها في هذه العربيَّة، فهو يستعير حيث يستعير، ويتجوَّز حيث يتجوَّز، ويطنب، ويوجز، ويؤكِّد، ويعترض، ويكرِّر، إلى آخر ما أحصي في البلاغة ومذاهبها؛ لأنَّه لو خرج عن ذلك لخرج من أن يكون معجزًا في جهة من جهاته، ولاستبان فيه ثمَّة نقص يمكن أن يكون في موضعه ما هو أكمل منه، وأبلغ في القصد والاستيفاء". (4)

وأحمد أحمد بدوي يشير كذلك إلى ما وراء ذلك العدول إلى الاستعارة من أسرار، وما يجب أن يكون في تناول أسرار الاستعارات القرآنيَّة بعد أن ينعى على القدماء طريقتهم في وقوفهم عندها، فيقول" اقتصر الأقدمون عندما تحدَّثوا عن الاستعارة في القرآن على ذكر أنواعها، من استعارة محسوس لمحسوس بجامع محسوس أو بجامع عقليٍّ، ومن استعارة محسوس لمعقول، ومن استعارة معقول لمعقول أو لمحسوس، ومن استعارة تصريحيَّة أو مكنيَّة، ومن مرشَّحة أو مجرَّدة، إلى غير ذلك من ألوان الاستعارة، وهم يذكرون هذه الألوان، ويحصون ما ورد في القرآن منها، ويقفون عند ذلك فحسب، وبعضهم يزيد فيجري الاستعارة، ظانًّا أنَّه بذلك قد أدَّى ما عليه، من بيان الجمال الفنِّيّ في هذا اللَّون من التَّصوير، ولم أر إلَّا ما ندر من وقوف بعضهم يتأمَّل بعض هذه اللَّمحات الفنِّيّة المؤثِّرة، وليس مثل هذه الدِّراسة بمجدٍ في تذوُّق الجمال، وإدراك أسراره". (5)

وتذوُّق جمال الاستعارات إلى جانب الوظيفة الَّتي تؤدِّيها- وهي ما أشار إليها المتقدِّمون ممَّن ذكرنا باسم الفائدة - كلُّ ذلك ما ستقف عليه هذه الدِّراسة في نماذج من الاستعارة التَّصريحيَّة الأصليَّة، على أن أعود

---

(4) تاريخ آداب العرب، الرافعي، 2 / 170.

(5) من بلاغة القرآن، أحمد أحمد بدوي، ص 166.

في بحوث أخرى إلى بقيَّة أنواعها، لطول الموضوع، إذ ليس القصد من هذه الدِّراسة استقصاء الاستعارات القرآنيَّة وأنواعها، فذلك ممَّا استفاضت به الكتب قديماً وحديثاً، وإنَّما الغرض منها الوقوف على وظيفة الاستعارة وجمال التَّعبير بها، وهما أمران متلازمان كان من أوائل من التفت إليهما الرُّمانيّ ومن بعده أبو هلال العسكريّ، ووردت إشارات متفرَّقة لذلك في كتب من جاء بعدهم من المفسِّرين والبلاغيّين، ولم يخصَّص لهما كتاب - فيما أعلم- إلَّا مجازات القرآن للشَّريف الرَّضيّ، وإن كان معنى الاستعارة عنده بالمعنى الواسع. كما كثرت هذه الإشارات في كتب المعاصرين خاصَّة سيِّد قطب وأحمد بدوي، والرَّافعيّ، وبعض الباحثين أمثال المطعني.

فكانت هذه الدِّراسة لتجميع تلك الإشارات، والزِّيادة عليها بالتَّوسُّع في إبراز القيمة الوظيفيَّة والجماليَّة للاستعارة التَّصريحيَّة الأصليَّة في القرآن، دون أن نستبدل مصطلحات قدامى البلاغيّين وتقسيماتهم كالاستعارة وأنواعها، والمحسوس والمعقول، والتَّوكيد، والمبالغة... الخ، باستعمال المصطلحات المحدثة: كالتَّجسيم، والتَّشخيص، والتَّخييل... ونحوها؛ لأنَّ هذه التَّسميات المختلفة شكليَّات لا تمسُّ جوهر الموضوع في شيء، وإذا كان الأمر كذلك فليكن التَّعبير عن جماليَّات الاستعارة بما يكشف عن جوانب الجمال والفنِّيّة فيها سواء أكان ذلك بالمصطلحات القديمة أم بالمصطلحات الحديثة.

الاستعارة التَّصريحيَّة الأصليَّة:

من المعلوم أنَّ الاستعارة من المجاز اللُّغويّ، الَّذي هو استعمال الكلمة في غير معناها الحقيقيّ، لعلاقة بينهما تجوّز ذلك الاستعمال، مع وجود قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقيّ، والعلاقة المجوّزة في الاستعارة هي المشابهة[6]، والاستعارة ضربان: تصريحيَّة ما استعير فيها لفظ المشبَّه به للمشبَّه، ليقوم مقامه ادِّعاء بأنَّهما شيء واحد، كما في استعارة اسم الأسد للفارس في قول زهير:

(6) لأن العلاقة إذا كانت غير المشابهة كالسببية، والجزئية ونحوها، كان الاستعمال من قبيل المجاز المرسل.

لَدَى أَسَدٍ شاكي السِّلاحِ مُقَذَّفٍ لَهُ لِبَدٌ أَظْفَارُهُ لَمْ تُقَلَّمِ [7]

والثانية مكنيَّة وهي ما استعير فيها لازم من لوازم المشبَّه به للمشبَّه، ادِّعاء بأنَّها من صفاته، كما في قول الشَّاعر مستعيراً إنشاب الأظفار من الحيوان للمنيَّة:

وإذَا المَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظفارَها أَلْفَيْتَ كلَّ تَمِيمةٍ لا تَنْفَعُ [8]

وكما تكون الاستعارة في الاسم الجامد كما في البيتين السَّابقين، وتسمَّى الأصليَّة، يمكن أن تكون كذلك في الفعل والمشتقَّات، وهي ما يعرف بالاستعارة التَّبعيَّة.[9]

وفيما يلي النَّماذج من القرآن بترتيب ورودها في المصحف:

1 - قوله تعالى: ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭼ. [البقرة: 10]

يقول ابن عطيَّة: " والمرض الَّذي في القلوب استعارة لفساد المعتقد، وحقيقة المرض والصِّحَّة في الأجسام وتستعار للمعاني".[10] فهنا نجد أنَّه استعار لفظ المرض من العلَّة الجسمانيَّة للنِّفاق، والعلاقة هي المشابهة الحاصلة بين المرض والنِّفاق في أنَّ كلًّا منهما يُفسد ما يتَّصل به، فالمرض يفسد الأجسام، والنِّفاق يفسد القلوب، والقرينة المانعة من إرادة المرض الجسمانيِّ حاليَّة؛ لأنَّ الآية الكريمة مسوقة لذمِّ المنافقين الَّذين أبطنوا الكفر، وأظهروا الإسلام، ولا معنى لأن يكون الذَّمَّ في وصفهم بالمرض الجسمانيِّ، بل المراد ذمُّهم بفساد قلوبهم، فإذن المراد بالمرض الَّذي في القلوب هو الكفر والنِّفاق، وهذا على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة الأصليَّة.

وهذه الاستعارة فيها بيان أنَّ السَّالم المعتقد، المنشرح الصَّدر بالإيمان يشبهه الصَّحيح، والفاسد المعتقد يشبهه المريض، ففي العبارة مجاز فصيح؛ لأنَّ المرض والصِّحة كما هي في الأعضاء، فهي كذلك في

---

(7) شرح المعلقات السبع، الزوزني، ص 84.

(8) المفضليات، المفضل الضبي، ص 422.

(9) مفتاح العلوم، السكاكي، ص 380.

(10) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية، 5 / 103.

المعتقدات، [11] وبما أنَّ المرض الجسمانيَّ معروف للبشر بأعراضه، وآثاره، وأضراره، فباستعارته لفساد المعتقد، يتَّضح النِّفاق في صورة بيِّنة من حيث أثره وضرره.

ويظهر في هذه الاستعارة كذلك الإيجاز البليغ الَّذي يجعل النَّصَّ منفتحاً على كثير من الدَّلالات، ولا أدلَّ على ذلك مَّما ذكره الرَّاغب في سبب تشبيه النِّفاق والكفر وغيرهما بالمرض فيرى: " إمَّا لكونها مانعة من إدراك الفضائل كالمرض المانع للبدن من التَّصرُّف الكامل؛ وإمَّا لكونها مانعة من تحصيل الحياة الأخرويَّة المذكورة في قوله: ﭽ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭼ[العنكبوت: 64]، وإمَّا لميل النَّفس بها إلى الاعتقادات الرَّديئة ميل البدن المريض إلى الأشياء المضرَّة". [12]

والعدول إلى الاستعارة في الآية الكريمة كذلك فيه ألوان من الإيحاء منها: تمكن النِّفاق، واستحكامه، واستقراره في قلوب المنافقين حتَّى صار مرضاً مازج دماءهم، واستشرى في أعضائهم، فهو مرض من أصل الخلقة، يوهن قوى الإيمان فيها، ويوجب ضعف أفعالهم الإسلاميَّة وخللها؛ لأنَّ المرض كما قيل: "ضعف في القوى، يترتَّب عليه خلل في الأفعال ". [13] وفي لفظ (المرض) كما يقول النَّورسيّ كذلك" رمز إلى قطع عذرهم، وإلقامهم الحجر بأنَّ الفطرة مهيَّأة للحقيقة، وما الفساد إلَّا مرض عارض، وفي تنوين التَّنكير إيحاء بأنَّه في مكمن عميق، لا يرى حتَّى يداوى". [14]

وبلاغة هذه الاستعارة وجمالها يبرز أيضاً في تخيُّر الألفاظ، وتناسبها مع السِّياق الَّذي وردت فيه، وما توحي به من معانٍ تناسب صفة هؤلاء المنافقين، فمن ذلك تخصيص المرض بالقلب للدَّلالة على عدم

(11) ينظر المحرر الوجيز، ابن عطية، 3 / 112.

(12) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، 2 / 372.

(13) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي، 1 / 44.

(14) إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، النّورسي، ص 95.

إظهار كفرهم بخلاف الكافر المجاهر، [15] وفي ذكر (القلب) إشارة إلى أنَّه كما إذا مرض الجسم اختلَّت جميع أفعال البدن؛ كذلك إذا مرض القلب بالخداع والنِّفاق انحرفت كلُّ أفعال الرُّوح عن منهج الاستقامة إذ هو منبع الحياة وآلتها. وفي تقديم (في قلوبهم) على (مرض) إيماء إلى الحصر بجهتين: أولاهما الإشارة بطريق التَّعريض إلى أنَّ الإيمان نور، شأنه أن يعطي لجميع أفعال الإنسان وآثاره صحَّة واستقامة، والثَّانية رمز إلى أنَّ الفساد في الأساس، فلا يجدي تعمير الفروع.[16]

ونلاحظ في الآية كيف أنَّ استعارة كلمة مرض لهذا المعنى قد أضفت عليه جدَّة، فهذا المرض ليس هو المرض المعروف، أي مرض الأجساد، إنما هو نقص في الدِّين، يأخذ منه كما يأخذ المرض من الأبدان. وقد أتى في آيات أخر بمعانٍ مختلفة، ممَّا يؤكد معنى الجدَّة الَّتي ذهبنا إليها، فقد جاء مع الرِّجس والكفر في: چ ٹ ٺ ٺ ٿ ٿ ٹ ٹ ڤ ڤ ڦ ڦڦ ڦ ڄ ڄ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ چ چ چ چ چ ڇ ڇ ڇچ [التوبة: 125] وفي چ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖچ [المدّثر: 31] ومع فتنة الشَّيطان في الآية: چ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰچ ، [الحج: 53] ومع الارتياب في: چ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ چ ،[النُّور: 50] ومع خبث الشَّهوة في الآية: چ ٺ ٿ ٿ ٿ ٹ ٹ ٹٹ ڤ ڤ ڤ ڤ ڦ ڦ ڦ ڦ ڦ ڄ ڄ چ، [الأحزاب: 32] ومع الأضغان: چ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ چ. [محمَّد: 29][17]

والملاحظ في جميع الآيات أنَّه يأتي دائماً: (في قلوبهم مرض، في قلبه مرض) ممَّا يؤكد الدَّلالة المجازيَّة لهذا المرض، وجدَّة المعنى الَّتي فصَّلنا الكلام فيها من خلال الآية الَّتي اخترناها في هذا الباب.

2-قوله تعالى: چ ڦ ڄ ڄ ڄ ڄ ڃ چ. [آل عمران: 103]

---

(15) ينظر روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي، 17 / 174.

(16) ينظر إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، النّورسي، ص 95.

(17) ينظر للمزيد، الإعجاز البياني للقرآن، بنت الشاطئ ، ص 580.

نقل الطَّبريّ عن ابن مسعود أنَّه قال: " حبل الله المتين الذي أمر أن يُعتصم به: هذا القرآن"، [18] كما نقل عن آخرين: أنَّه الجماعة، أو الإخلاص لله، أو الإسلام أو أمر الله وقيل: حبل اللَّه: العهد، أَو الدِّين، أو الطَّاعة، أو إخلاص التَّوبة، أو الجماعة، أو إخلاص التَّوحيد، أو الإسلام. وهذه كلُّها أقوال للسَّلف. والحبل هو السَّبب الَّذي يتوصَّل به إلى البغية، كما يتوصَّل به إلى زوال الخوف، والحاصل أنَّ طريق الحقِّ دقيق والسَّائر عليه غير مأمون أن تزلَّ قدمه عن الجادَّة، فيراد بالحبل ههنا ما يتوصَّل به إلى الثَّبات على الحقِّ، وإن كانت عبارات المفسِّرين متخالفة. [19]

ولعلَّ المعنى الأوَّل - الَّذي يبدو أنَّ الطَّبريّ يميل إليه - هو الأصحُّ ، لما جاء في حديث زيد بن أرقم أنَّ رسول الله ρ قال: " ألا وإنِّي تارك فيكم ثقلين أحدهما كتاب الله، هو حبل الله، من اتَّبعه كان على الهدى، ومن تركه كان على ضلالة".[20] على أن يكون القرآن رمزاً للدِّين والعهد وما أشبهها، وبهذا يكون قد شبَّه القرآن بالحبل، واستعير اسم المشبَّه به، وهو الحبل للمشبَّه، وهو القرآن على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة الأصليَّة، والجامع بينهما التوصُّل للمقصود في كلٍّ، وإضافته للفظ الجلالة قرينة مانعة، والاعتصام ترشيح.[21]

وسرُّ جمال التَّعبير بالحبل أنَّه أدقُّ في بيان مدى قوَّة الارتباط الَّتي يحقِّقها الالتزام بكتاب الله وعهده، وفوق ذلك إمكان الوثوق به والاعتماد عليه. فمعنى الصِّلة المتينة لذلك الدِّين الَّذي يربطك بالله، يثيره في النَّفس هذا التَّعبير القويُّ المصوِّر لحبل الله، وللمتمسِّك به إذ " شبَّه استظهار

(18) جامع البيان، الطبري، 7 / 71.

(19) ينظر غرائب القرآن ورغائب الفرقان، النيسابوري 2 / 224.

(20) الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم، 7 / 123.

(21) الترشيح في اصطلاح البلاغيين ذكر ملائم المشبه به في الاستعارة تقوية للتخييل.

العبد بالله، ووثوقه بحمايته والنَّجاة من المكاره، باستمساك الواقع في مهواة بحبل وثيق مدلَّى من مكان مرتفع يأمن انقطاعه".(22)

وحسن الاستعارة مأتاه هنا من هذا البيان والإيضاح باستعارة المحسوس للمعقول، وإخراج المعنويِّ المدرك بالعقول مخرج الحسِّيِّ المدرك بالحواسِّ الظَّاهرة، اعتناء به، ومبالغة في إظهاره، وذلك بتصوير دين الله وميثاقه بصورة (الحبل) الحسِّيَّة، ففي هذه الصُّورة تبرز المعاني شخوصاً مرئيَّة في عالم محسوس مجسَّم، ونماذج فنِّيَّة عن طريق الألفاظ فحسب.

ويكتمل جمال التَّعبير بالتَّناسق بين الألفاظ والمعاني الَّتي تؤديها في الموضع الَّذي جاءت فيه الاستعارة، فجمال هذه الاستعارة يؤكِّده هنا ﭽ ﭬ ﭼ الَّذي هو من قبيل ترشيح الصُّورة بالاعتصام؛ لأنَّ الاعتصام من المعاني المرتبطة بالحبل، والمعنى الذِّهنيُّ هنا ترسمه الصُّورة بالأيدي المتمسِّكة بعهد الله ودينه ومنهجه، والقلوب المتآلفة المتوحِّدة على منهجه بعد أن كانت أشتاتاً وفرقاً. وذكر القلوب هنا له دلالته، وذلك للإيحاء بالرَّوابط الرُّوحيَّة الَّتي هي أساس الرَّوابط الاجتماعيَّة، كلُّ ذلك مقابل صورة حالهم قبل الإيمان حين كانوا على شفا حفرة من النَّار فأنقذهم الله من السُّقوط فيها،(23) حين هداهم إلى التَّمسُّك بحبل الله الممتدِّ، فتمَّت لهم النَّجاة من السُّقوط المرتقب في النَّار.

3 - وفي الآية: ﭽ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﭼ. [الأعراف: 157]

يعنى القرآن وقد استعير له اسم النُّور، وفي ذلك يقول الرَّازيّ " كيف يمكن حمل النُّور ههنا على القرآن، والقرآن ما أنزل مع محمَّد وإنَّما أنزل مع جبريل؟ فيقول: قلنا: معناه أنَّه أنزل مع نبوَّته؛ لأنَّ نبوَّته ظهرت مع ظهور القرآن".(24)

---

(22) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، 3 / 156.

(23) في قوله تعالى: ﭽ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﭼ. [آل عمران: 103]

(24) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي 15 / 22.

وهذه صورة مجازيَّة رائعة، شُبِّه فيها القرآن بـ " النُّور" على طريق الاستعارة التَّصريحيَّة الأصليَّة بجامع: الهداية والإرشاد، والقرينة لفظيَّة هي قوله: چ گ گ چ.

وجمال الاستعارة في الآية السَّابقة ممَّا وقف عنده عبد القاهر الَّذي يعدُّ هذه الاستعارة أبلغ أنواع الاستعارات، ويسمِّيها الضَّرب الصَّميم الخالص من الاستعارة، وضابطها عنده أن يكون الشَّبه مأخوذاً من الصُّور العقليَّة كاستعارة النُّور للبيان، والحُجَّة الكاشفة عن الحقّ المزيلة للشَّكِّ النَّافية للرَّيب، كما جاء في الآية، وكاستعارة الصِّراط للدِّين في قوله تعالى: چ ٹ ٹ ٹ چ، [الفاتحة: 6] ثمَّ يقول: "واعلم أنَّ هذا الضَّرب هو المنزلة الَّتي تبلغ عندها الاستعارة غاية شرفها، ويتَّسع لها كيف شاءت المجال في تفنُّنها وتصرُّفها ".[25]

وقد استعيرت كلمة " النُّور" للقرآن في الآية الكريمة كما قال ابن الخازن " لأنَّه به يستنير قلب المؤمن؛ فيخرج به من ظلمات الشَّكِ والجهالة إلى ضياء اليقين والعلم"،[26] وقيل: " لأنَّه بإعجازه ظاهر أمره، ومظهر غيره، أو لأنَّه كاشف للحقائق مظهر لها".[27] وكلُّ ذلك لأجل تأكيد معنى الهداية، وتوضيح حقائق هذا الدِّين وتحديدها، فلا غرو إذن أن يكثر التَّعبير عنها بالنُّور في التَّنزيل؛ لما في ذلك من إيضاح وتقريب بالصُّورة المحسوسة؛ لأنَّه ما من شيء أوضح من النُّور في كشف الأشياء بادية للعيان بحقائقها، والقرآن حقائق وعقائد وسلوك، تهدي المؤمن دائماً ليسير في طريق واضح ما بقي، كما تضيء الأنوار جوانب الطَّريق؛ فيهتدي السَّائر فيه، فإذا ما انصرف الإنسان عن هذه الحقائق وفقد هذا النُّور، اشتبهت عليه الأمور، وصار إلى ليل كله شَّك وضلال. والاستعارة هنا فيها بيان أهمِّيَّة هذا القرآن للمؤمن ليهتدي إلى سواء السَّبيل، وليتبيَّن به الطَّريق الصَّحيح في العقيدة، والعبادات والسُّلوك،

---

(25) أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، ص 65.

(26) لباب التأويل في معاني التنزيل، الخازن، 2 / 298 -299.

(27) البحر المديد، ابن عجيبة، 2 / 403.

وذلك بتشبيهه بالنُّور الَّذي يكشف للإنسان معالم الطَّريق، فلا يتخبَّط في الظُّلمات؛ فيقع في المهالك.

كما أكسبت الاستعارة في الآية كلمة النُّور معنى جديداً، فهو نور ليس ككلِّ الأنوار، فهو نور- كما يقول الألوسي - " لظهوره في نفسه بإعجازه، وإظهاره لغيره من الأحكام وصدق الدعوى، فهو أشبه شيء بالنور الظاهر بنفسه، والمظهر لغيره "، (28) يقود إلى طريق الهدى القويم، طريق الله فهو بذلك أجدر أن يتَّبع.

وتجديد معناها كما تدلُّ عليه هذه الآية، يؤكِّده استعارتها لمعانٍ جديدة في مواضع مختلفة، فالله تعالى سمَّى الرَّسول نوراً: ﭽ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﭼ [المائدة: 15] وسمَّى التوراة نوراً: ﭽ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﭼ[المائدة: 44] وسمَّى بيانه نوراً: ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭼ [الزمر: 22] وسمَّى الإيمان نوراً: ﭽ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭼ [الحديد:12]، وسمَّى دينه نوراً: ﭽ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﭼ.(29) [الصف: 8]

4 - قال تعالى: ﭽ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﭼ. [التوبة: 109]

وهذا مثل ضربه الله تعالى للمسجدين مسجد الضِرار، ومسجد التَّقوى مسجد قباء، أو مسجد الرَّسول ρ، ومعنى المثل: أفمن أسس بنيان دينه على قاعدة قويَّة محكمة، وهو الحقُّ الَّذي هو تقوى الله ورضوانه خير؟ أم من أسس دينه على أضعف القواعد وأقلِّها بقاء وثباتاً؟ وهو الباطل والنِّفاق الَّذي مثله مثل بناء على غير أساس ثابت، وهو شفا جرف هارٍ، وإذا كان كذلك كان أسرع إلى السُّقوط في نار جهنَّم؛ ولأنَّ الباني الأوَّل قصد ببنائه تقوى الله ورضوانه؛ فكان بناؤه أشرف البناء, والباني الثَّاني قصد ببنائه الكفر والنِّفاق، وإضرار المسلمين؛ فكان بناؤه أخسَّ البناء، وكانت عاقبته إلى نار جهنَّم.(30)

---

(28) روح المعاني، الألوسي، 9 / 82.

(29) ينظر مفاتيح الغيب، الفخر الرازي 2 / 16.

(30) ينظر لباب التأويل، الخازن، 3 / 150.

وفي الآية استعارة تصريحيَّة أصليَّة، والقرينة المقابلة، وهذه كما يقول الألوسيّ " من أحسن الاستعارات "؛[31] إذ تقوم على هاتين الصُّورتين الشَّاخصتين: بنيان أسس على تقوى من الله ورضوان، أساسه التَّقوى والرِّضوان، فهو قويٌّ متين، وبنيان أسِّس على قواعد ضعيفة على طرف جرف هارٍ، فهو في غاية الضَّعف، لا يلبث أن ينهار.

وفي ذلك ضرب من الإيضاح والبيان بتجسيد المعاني الَّتي بلغ القرآن الكريم شأواً بعيداً معجزاً فيها، وفي هذه الآية دليل على ذلك، فالإيمان والتَّقوى مفهومان معنويان، ولكن القرآن يجسِّدهما عندما يشبِّههما بالبنيان، وكذلك الضَّلال يجسِّده تعالى بكلمة (بنيان)، وهذا ممَّا التفت إليه قديماً الرُّمانيّ في قوله: " وأصل البنيان إنَّما هو للحيطان وما أشبهها, وحقيقته اعتقادهم الَّذي عملوا عليه, والاستعارة أبلغ لما فيها من البيان بما يحسُّ ويتصوَّر".[32]

والاستعارة هنا صورة فنِّيَّة رائعة إذ تجسِّد الإيمان في صورة بنيان أساسه التَّقوى ورضوان الله، بحيث نتصوره بناء متيناً راسخاً، موصولاً بعناية الله، أمَّا الكافرون فبنيانهم على حافَّة هاوية منهارة. وهنا يبلغ التَّصوير الفنِّيُّ منتهاه في الإبداع والتَّخييل والتَّجسيد، فها نحن مع بنيان الكفر، وهو على حافَّة، فهو مخلخل يوشك أن يتهاوى، والحافَّة على جانب هاوية سحيقة، فهو بناء يحمل الخطر والموت، وإذا بالبناء ينهار بصاحبه في نار جهنَّم، فقد لمسنا بالعين والحسّ والخيال صورة الكفر الفاسدة المتداعية المتساقطة الَّتي لا تستند إلى دعائم، ولا تقوم على أساس إلَّا أساس من التَّخلخُل والتَّصدُّع والاهتزاز، فتتهاوى في الجحيم، وهنا يبرز فنُّ التَّعبير والتَّصوير، بتجسيده المعاني ضمن إطار من الصُّور والمرئيَّات والمحسوسات، بصورة متكاملة متناهية، وذلك إعجاز كلام الله عزَّ وجلَّ وبلوغه المنتهى والكمال.[33]

---

(31) روح المعاني، الألوسي، 23/11.

(32) النكت في إعجاز القرآن، (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) الرماني، ص 91.

(33) ينظر الجدول في إعراب القرآن الكريم، محمود بن عبد الرحيم صافي، 11 / 37.

ولتحقيق تصوير المعنى بصورة المحسوس كانت أجزاء الصُّورة كذلك مجازيَّة، فالبنيان هو الدِّين الخالص، وشفا الجرف الهاري هو الباطل والنِّفاق، وجاء من ذلك كلِّه المعنى الآسر في أحسن معرض؛ لأنَّ القرآن آثر أن يخرج تصوير تلك الحالة في صورة فنِّيِّة بإتباع الكلمة المستعارة بأشكال لها وأخوات، يؤدِّى تلاحقهنَّ إلى تحسين الكلام، وفوق ذلك تقوية تمثيل المعنى وإبرازه. يقول الزَّمخشريّ: " لمَّا جعل الجرف الهائر مجازاً عن الباطل قيل: فانهار به في نار جهنَّم على معنى: فطاح به الباطل في نار جهنَّم، إلَّا أنَّه رشَّح المجاز فجئ بلفظ الانهيار الَّذي هو للجرف، وليصوِّر أنَّ المبطل كأنَّه أسَّس بنياناً على شفا جرف من أودية جهنَّم؛ فانهار به ذلك الجرف فهوى في قعرها... ولا ترى أبلغ من هذا الكلام، ولا أدلّ على حقيقة الباطل وكنه أمره ".[34]

وهو يشير إلى عنصر (التَّرشيح) في الاستعارة، ليزيد من تطابق حدَّيها، وتناسي التَّشبيه بينهما، لتقوية المعنى المقصود، ففي هذه الصُّورة الاستعاريَّة، نجده حين استعمل الجرف الهاري في التَّعبير عن الباطل، رشّحه بقوله: ﭼ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﭽ بمعنى أنَّه هوى به في أودية جهنَّم، فجاء بلفظ فانهار الَّذي هو للجرف؛ ليصوِّر أنَّ المبطل أسَّس بنيانه، على شفا جرف من النَّار، فانهار به في جهنَّم مباشرة، دون فاصل بين تأسيس البنيان على الباطل، وبين الانهيار في النَّار، لهذا جاء العطف بالفاء، وبذلك طوى الحياة الدُّنيا كلَّها، دون أن يذكر ولو كلمة " ثمَّ" في موضع "الفاء"، فقيل: "فانهار"؛ لأنَّ هذا المدى الطَّويل، قصير قصير، حتَّى لا ضرورة لهذا "التَّراخي" القصير![35] ليفيد التَّعقيب والتَّرتيب بين المقدِّمة والنَّتيجة، أو بين الباطل والنَّار، وبهذا تتَّضح العلاقة الوثيقة بين الاثنين في التَّصوير والتَّعبير والتَّأثير.

والتَّعبير القرآنيُّ الفريد يرسم هنا بالاستعارة صورة حافلة بالحركة الَّتي تولِّد التَّخييل، الَّذي ينبئ عن مصير كلِّ مسجد ضرار يقام إلى جوار مسجد التَّقوى، ويراد به ما أريد بمسجد الضِّرار، وتكشف عن نهاية كلِّ

---

(34) الكشاف عن حقائق التنزيل، الزمخشري، 2 / 297.

(35) ينظر التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، ص 47.

محاولة تخفي وراءها نيَّة خبيثة، وتطمئن الأنقياء من كلِّ كيد يراد بهم، " فالصُّورة ناطقة بالحركة السَّريعة العنيفة في بناء الضِّرار القائم على حافَّة جرف منهار، كأنَّنا نبصره اللَّحظة يتأرجَّح وينزلق إلى نار جهنَّم، فهو مشهد عجيب، حافل بالحركة المثيرة ترسمه وتحرِّكه بضع كلمات للدَّلالة على " قرب النَّار من أهل الزَّيغ والضَّلال، حيث لا يفصلهم عنها إلَّا حركة واحدة متوقَّعة، تهوي بهم في قعر جهنَّم".[36]

والصُّورة على إيجازها مليئة بالدَّلالات المعنويَّة والفنِّيَّة، حيث نلاحظ دقَّة التَّصوير في المقابلة بين من أسَّس بنيانه على أساس التَّقوى، وهو أساس قويٌّ متين نافع في الدُّنيا والآخرة، وبين من أسَّس بنيانه على أساس ضعيف منهار، فالأوَّل مثل المؤمن، والثَّاني مثل للمنافق، وخلاصة المثلين أنَّ الإيمان الصَّادق وما يتبعه من العمل المثمر النَّافع كالبناء المتين المؤسَّس الَّذي يقي صاحبه عوادي الزَّمان، وأنَّ النِّفاق وما يستلزم من العمل الفاسد هو الباطل الزَّاهق، وهو كالبناء الَّذي يبنى على الجرف المنهار، لا ينفع صاحبه، ولا يقيه سوءاً، بل يضرُّه ضرراً بليغاً، حيث ألهاه عن العمل المثمر النَّافع.

5- قوله تعالى: چ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ چ. [إبراهيم:1]

ذكر هذه الآية العزُّ بن عبد السَّلام مع عدد من الآيات في فصل التجوُّز بالنُّور عن الهدى، وبالظُّلمات عن الضَّلالات، وكما قال فقد كثر في القرآن التَّعبير باستعارة النُّور للهدى، والظُّلمات للضَّلال،[37] فممَّا يشابه الاستعارة في الآية السَّابقة قوله تعالى: چ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ چ. [الحديد: 9] وهي من غرر الاستعارات كما يفهم من قول الشَّريف الرَّضيّ " كلُّ ما في القرآن من ذكر الإخراج من الظُّلمات إلى النُّور فالمراد به ما ذكرنا، وذلك من أحسن التَّشبيهات؛ لأنَّ الكفر كالظُّلمة الَّتي يتسكَّع فيها الخابط، ويضلُّ القاصد، والإيمان كالنُّور الَّذي يؤمُّه الحائر،

(36) وظيفة الصورة الفنية في القرآن، عبد السلام أحمد الراغب، ص 70.

(37) ينظر الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز، العز بن عبد السلام، ص 74.

ويهتدي به الحائر؛ لأنَّ عاقبة الإيمان مضيئة بالإيمان والثَّواب، وعاقبة الكفر مظلمة بالجحيم والعذاب". (38)

وفي الآية الكريمة استعيرت الظُّلمات للضَّلال بجامع عدم الاهتداء في كلٍّ منها، واستعير النُّور بجامع الاهتداء في كلٍّ، وهذا المسلك الأدبيُّ ممَّا يسمِّيه علماء البلاغة "الاستعارة التَّصريحيَّة الأَصليَّة".

والتَّعبير بالاستعارة هنا أوضح من التَّعبير الحقيقي في تمثُّل الإيمان والكفر " لما فيه من البيان بالإخراج إلى ما يدرك بالأبصار"، (39) فاستعارة النُّور للإيمان والظُّلمات للكفر موضِّح لحقيقة كليهما، ومصوِّر لجوهرهما، فكلمة (الظُّلمات) تصوِّر الضَّلال ليلاً شديد السَّواد يخفي معالم الطَّريق أمام الضَّال؛ فلا يهتدي إلى الحقِّ، وكلمة "النُّور" تصوِّر الهدى مصباحاً منيراً يضيء جوانب العقل والقلب؛ فتتَّضح معالم الطَّريق أمام المهتدي؛ فيصل إلى الحقِّ دون عناء.

كما أنَّ في التَّعبير بالظُّلمات عن الكفر، وبالنُّور عن الإيمان إيضاحاً ناشئاً من إبراز المعاني الذِّهنيَّة المجرَّدة في صورة محسوسة حيَّة متحرّكة كأنَّ العين تراها، واليد تلمسها. وكلٌّ من النُّور والظُّلمة أمر حسِّيٌّ، فجيء بالظُّلمات والنُّور ممَّا تدركه الحواسُّ الَّتي هي في الأصل وسائل الإدراك في الإنسان؛ ليظهر لنا هذا المعنى؛ حيث يكون الطَّريق المستقيم هو أقصر وسيلة لبلوغ الغاية المرجوَّة من الحياة الدُّنيا والآخرة؛ ويكون طريق الظُّلمات هو الطَّريق غير الآمن. وهكذا تتَّضح المعاني بالمحسوسات الَّتي يدركها الجميع، فلا شك أنَّ الظُّلمة تستر الأشياء الَّتي قد يصطدم بها الإنسان؛ فيمتنع عن السَّير مطمئنَّاً، وهكذا تمنع الظُّلْمة الإنسان من أن يهتدي إلى ما يريد، أما النُّور فهو يوضِّح الأشياء، ويستطيع الإنسان أن يميِّز بين الطُّرق، ويتجنَّب الضَّارَّ، ويتَّجه إلى النَّافع؛ ويكون على بصيرة من أمره.

كما جاء بهذين المحسوسين المتقابلين للاستفادة من خاصِّيَّة التَّقابل الَّتي تعين على الإيضاح كذلك، وقديماً قيل: بضدِّها تتبيَّن الأشياء، فالحياة

---

(38) تلخيص البيان في مجازات القرآن، الشريف الرضي، 2 / 121.

(39) النكت في إعجاز القرآن، الرماني، ص 92.

كلُّها فيها الشَّيء وما يقابله؛ لذلك لا بدَّ أن تُجْلَى المعاني أيضاً بهذا التَّقابل الحسّيّ.

ثمَّ هناك في العدول إلى هذه الاستعارة الدِّقَّة في التَّعبير، فجمع الظُّلمات "يصوِّر لك إلى أيِّ مدى ينبهم الطَّريق أمام الضَّال، فلا يهتدي إلى الحقِّ وسط هذا الظَّلام المتراكم". (40) وإن جاءت الظُّلمات جمعاً؛ إلَّا أنَّ النُّور جاء مفرداً، لأنَّ النُّور واحد لا يتعدَّد، أمَّا الظُّلمات فمتعدِّدة بتعدُّد الأهواء؛ ظلمة هنا، وظلمة هناك، فهناك ظلمات الوهم والخرافة، وظلمات الأوضاع والتَّقاليد، وظلمات الحيرة في تيه الأرباب المتفرِّقة، وفي اضطراب التَّصوُّرات والقيم والموازين؛ لتخرج البشريَّة من هذه الظُّلمات كلِّها إلى النُّور الَّذي يكشف هذه الظُّلمات. (41) وهذا ما أشار إليه الفخر الرَّازيّ، إذ يقول: " الآية دالَّة على أنَّ طرق الكفر والبدعة كثيرة، وأنَّ طريق الخير ليس إلَّا الواحد؛ لأنَّه تعالى قال: چ ٹ ٹ ٹ ڤ ڤ ڤ چ فعبَّر عن الجهل والكفر بالظُّلمات، وهي صيغة جمع، وعبَّر عن الإيمان والهداية بالنُّور وهو لفظ مفرد، وذلك يدل على أنَّ طرق الجهل كثيرة، وأمَّا طريق العلم والإيمان فليس إلَّا الواحد"، (42) كما يُفسِّره لنا الحقُّ - سبحانه - فيقول: إلى چ ڤ ڤ ڄ ڄ چ [إبراهيم: 1]. وهذا هو الصِّراط المستقيم الَّذي يُخرجنا إليه محمَّد ρ من الظُّلمات إلى نوره.

كما تستوقفنا في هذه الاستعارة ما أضفته من جدَّة على دلالة النُّور والظَّلام، فالنُّور هنا ليس النُّور المألوف، ولا الظُّلمات هي ما نعرفه، فالنُّور هنا كما يقول سيِّد قطب هو: الإيمان يشرق في القلب؛ فيشرق به هذا الكيان البشريُّ، بنفخة من روح الله، يجلوها، ويطلقها لتشفَّ في هذا الكيان المعتم، وليشفَّ بها، وهو الإيمان تشرق به النَّفس، فترى الطَّريق واضحة إلى الله، وهو الإيمان تشرق به الحياة، فيتساوى به النَّاس في العبوديَّة لله، وتربطهم بالكون كلِّه رابطة المعرفة بالخالق، فإذا هم في

(40) من بلاغة القرآن، أحمد أحمد بدوي، ص 168.

(41) ينظر تفسير الشعراوي – الخواطر، مطابع أخبار اليوم، 1997 م.

(42) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي ، 59/19.

سلام مع الكون، وما فيه ومن فيه. والإيمان بالله نور: نور العدل، ونور الحرِّيَّة، ونور المعرفة، ونور الأنس بجوار الله، والاطمئنان إلى عدله، ورحمته، وحكمته. (43)

كما نلحظ ممَّا سبق ما وراء هذا التَّعبير القصير: ﭽ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ من حقائق غير متناهية في عالم العقل والقلب. وفي عالم الحياة والواقع، لا يبلغها تعبير البشر، وهذا من الإيجاز المعجز الموسوم به القرآن، والَّذي تؤدِّيه الاستعارة بكلِّ سهولة وفنِّيَّة، مع الإيحاء من وراء ذلك الإيجاز بمعانٍ ومعانٍ، فإنَّ في إيثار الظُّلمات والنُّور بالذِّكر هنا دون غيرهما من الأعراض إيحاء بأنَّ الانغماس في الجهالة والحيرة والمفاسد طريق كثيف الظُّلمات كلُّه خطر، وأنَّ الإيمان طريق منير كلُّه أمن وخير.

6- ومنه قوله تعالى: ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭼ. [فصلت: 5]

يقول العزُّ بن عبد السَّلام: " شبِّهت موانع الانتفاع بما يقوله، ويدعوهم إليه بالحجاب المانع من الرُّؤية والسَّماع ".(44)وكما يقول الشَّريف الرَّضيّ: " وليس هناك على الحقيقة شيء ممَّا أشاروا إليه، وإنَّما أخرجوا هذا الكلام مخرج الدَّلالة على استثقالهم ما يسمعونه من قوارع القرآن، وبواقع البيان، فكأنَّهم من قوَّة الزَّهادة فيه، وشدّة الكراهية له، قد وقرت أسماعهم عن فهمه، وأكنِّت قلوبهم دون علمه. وذلك معروف في عادات النَّاس أن يقول القائل منهم لمن يشنأ كلامه، ويستثقل خطابه: ما أسمع قولك، ولا أعي لفظك، وإن كان صحيح حاسَّة السَّمع، إلَّا أنَّه حمل الكلام على الاستثقال والمقت". (45) وبذا يكون قد استعيرت (الأكنَّة، والوقر، والحجاب) لموانع الانتفاع على اختلاف صورها، على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة الأصليَّة.

---

(43) ينظر في ظلال القرآن، سيد قطب، 4 / 2085.

(44) الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز، العز بن عبد السلام، ص 71.

(45) تلخيص البيان في مجازات القرآن، الشريف الرضي، ص 292.

ووظيفة الاستعارة هنا البيان والإيضاح؛ لأنَّ الأكنَّة والوقر- أي الثِّقل- والحجاب هنا ليست حقيقة، بل ذلك لصرف قلوبهم عن تدبُّر آيات الله، ولتركهم الإصغاء إلى سماعها، فهو من باب استعارة المحسوس للمعقول حتَّى يستقرَّ في النَّفس،(46) وعليه فالتَّعبير بالأكنَّة وبالوقر - وهما من المحسوسات - أوضح وأبين من التَّعبير بحقيقة المعنى المجرَّد، وهو صرفهم عن فهم الآيات وتدبُّرها. وذلك باعتبار أنَّ صورة الأغطية على القلوب، والصَّمم في الآذان، والحجاب على العيون، كلُّها حواجز مادِّيَّة محسوسة تجسِّم امتناع الفهم والإدراك والمعرفة، وتصرف عن الاستجابة لدعوة الإيمان.

والاستعارة من هذا النَّوع تصف حالة عقليَّة أو معنويَّة؛ وهي حالة عدم الاستفادة ممَّا يسمعه بعضهم من الهدى، وكأنَّهم لم يسمعوا به، أو يتَّصلوا به اتِّصالًا ما؛ فيجعل كأنَّما هناك حواجز مادِّيَّة تفصل بينهم وبينه، والاستعارة بذلك " تجسِّم هذه الحواجز المعنويَّة، كأنَّما هي موانع حسِّيَّة؛ لأنَّها في هذه الصُّورة أوقع وأظهر".(47)

كما تفيد الاستعارات في الآية المبالغة إذ تبيّن شدَّة إعراضهم عن الإيمان بصور تدلُّ على تعطيلهم حواسهم الَّتي هي منافذ الإدراك، وتذكر هنا ما يوجب اليأس من إيمان بعض منهم لوجود الموانع الصارفة عنه، فمهما توالت الآيات والنُّذر لا تجدي معهم شيئًا؛ إذ الحجب كثيفة، والأغطية سميكة، فاختراقها عسير، والوصول إليها في حكم المستحيل، فالأمر إذن كما قيل في قوله تعالى: چ ئا ئا چ [الأنعام: 25] " تمثيل معرب عن كمال جهلهم بشئون النَّبيّ عليه الصَّلاة والسَّلام، وفرط نُبُوَّة قلوبهم عن فهم القرآن الكريم ومجّ أسماعهم له". (48) كما أنَّ المبالغة مستفادة من الاقتصار على هذه الأعضاء الثَّلاثة، وذلك " لأنَّ القلب محلُّ المعرفة، وسلطان البدن، والسَّمع والبصر هما الآلتان المعيَّنتان لتحصيل

(46) ينظر البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، 4 / 101.

(47) التصوير الفني في القرآن الكريم، سيد قطب، ص 82.

(48) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم) تفسير أبي السعود)، 3 / 121.

المعارف، فلمَّا بيَّن أنَّ هذه الثَّلاثة محجوبة كان ذلك أقصى ما يمكن في هذا الباب ".[49]

وممَّا زاد جمال الاستعارة وإفادتها معنى المبالغة ما ذكره الزَّمخشريّ من استخدام الظَّرف " في" مع القلوب دون " على "، يقول: " فإن قلت: هلَّا قيل: على قلوبنا أكنَّة، كما قيل: وفي آذاننا وقر؛ ليكون الكلام على نمط واحد؟ قلت: هو على نمط واحد؛ لأنه لا فرق في المعنى بين قولك: قلوبنا في أكنَّة. وعلى قلوبنا أكنَّة. والدَّليل عليه قوله تعالى: ﭽ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﭼ ولو قيل: إنَّا جعلنا قلوبهم في أكنَّة: لم يختلف المعنى، وترى المطابيع منهم لا يراعون الطِّباق والملاحظة إلَّا في المعاني"[50]، وهذا يعني أنَّ (في) أبلغ في هذا الموضع من (على)؛ لأنَّهم قصدوا المبالغة والإفراط في عدم القبول، لوجود قلوبهم في هذه الأكنَّة الَّتي احتوت عليها احتواء الظَّرف على المظروف، فلا يمكن أن يصل إليها شيء. كذلك لزيادة الحرف (مِنْ) في قوله (وَمِن بَيْنِنَا) أثر كبير في إفادة المبالغة تلك؛ لأنَّه لو قيل وبيننا وبينك حجاب لكان المعنى أنَّ حجاباً حصل وسط الجهتين، وأمَّا بزيادة لفظ " مِنْ " كان المعنى أنَّ الحجاب ابتدأ منَّا، وابتدأ منك، فالمسافة الحاصلة بيننا وبينك مستوعبة بالحجاب، وما بقي جزء منها فارغاً عن هذا الحجاب، فكانت هذه اللَّفظة دالَّة على قوَّة هذا الحجاب كما قال الزمخشري.[51]

والاستعارة في الآية كما يرى سيِّد قطب " تصوِّر هذه النَّماذج البشريَّة الَّتي تستمع، ولكنَّها لا تفقه، كأنَّ ليس لها قلوب تدرك؛ وكأنَّ ليس لها آذان تسمع، وهي نماذج مكرورة في البشريَّة في كلِّ جيل وفي كلِّ قبيل، في كلِّ زمان وفي كلِّ مكان، إنَّهم أناسيٌّ من بني آدم، ولكنَّهم

(49) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي 27 / 85.

(50) الكشاف عن حقائق التنزيل، الزمخشري، 4/ 191.

(51) ينظر الكشاف عن حقائق التنزيل، الزمخشري، 4 / 191.

يسمعون القول وكأنَّهم لا يسمعونه، كأنَّ آذانهم صمَّاء لا تؤدِّي وظيفتها، وكأنَّ إدراكهم في غلاف لا تنفذ إليه مدلولات ما سمعته الآذان".[52]

وتشارك الآية الَّتي تكلمنا عنها عشرات الآيات الَّتي اشتملت على هذا النَّوع من الاستعارة بوظيفتها وأسرار جمالها، وقد ذكر العزُّ بن عبد السَّلام من ذلك قوله تعالى: چ ڑ ک ک ک ک گ گ گ گ چ، [ق: 22] أي فأزلنا عنك غفلتك، فشبَّه الغفلة بالغطاء كما شبَّهها بالغمرة في قوله: چ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ چچ، [المؤمنون: 63] أي في غفلة وجهالة.[53]

ومن الاستعارات الَّتي جاءت في هذا المعنى: چ ٹ ٹ ٹ ٹ ٹ ٹٹ ٹ ٹ ٹ چ، [البقرة: 7] ومنها چ د د ئا ئا ئە ئە ئو ئو ئۇ ئۇ چ، [الأنعام: 25] وقوله تعالى: چ ھ ہ ھ ھ ے ے ۓ ۓ ڭ ڭ ڭ چ؛ [الإسراء: 45] أي: حائلاً وساتراً يمنعهم من تفهُّم القرآن وإدراكه لئلا يفقهوه فينتفعوا به، وقوله چ چ ڇ ڇ چ ڇ چ چ چ، [الكهف:101] وقوله: وقوله: چ ک گ گ گ گ گ گ چ، [محمَّد: 24] إلى غير ذلك من الآيات.[54]

7/ قال تعالى: چ ٱ ٻ ٻ ٻ ٻ پ چ. [الشورى: 52]

والرُّوح مستعارة في هذه الآية للقرآن وهدى الشَّريعة، على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة الأصليَّة، وقد قال المحقِّقون كما ذكر النيسابوريّ: " الرُّوح الأصليُّ هو القرآن الَّذي فيه بيان المبدأ والوسط والمعاد، فبه يحصل إشراق العقل، وبالعقل يكمل ضياء جوهر الرُّوح، وبالرُّوح يكمل حال الجسد، فهو الأصل والباقي فرع عليه".[55]

واستعارة لفظة الرُّوح للقرآن تفيد الإيضاح والبيان؛ " لأنَّ النَّاس يحيون به من موت الضَّلالة، وينشرون من مدافن الغفلة، وذلك أحسن

---

(52) في ظلال القرآن، سيد قطب، 2 / 1065.

(53) ينظر الإشارة إلى الإيجاز، العز بن عبد السلام، ص 71.

(54) ينظر أضواء البيان، الشنقيطي، 3 / 159.

(55) غرائب القرآن ورغائب الفرقان، النيسابوري، 4 / 241.

تشبيه، وأوضح تمثيل".[56] كما قال الشَّريف الرَّضيّ. كذلك لأنَّه يجيء بما فيه حياة النَّاس، فهو كالحياة لهم، أو يقوم مقام الرُّوح في الأجساد، ومن حيث يحيا به البشر والعالم كما يحيا الجسد بالرُّوح، كما أنَّه سبب للحياة الآخرويَّة الموصوفة في قوله: ﭼ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞﭼ [العنكبوت: 64]

وفي التَّعبير بالرُّوح عن القرآن أيضاً إيجاز بديع موحٍ بكثير من المعاني، لما يشعر بأنَّ الموحى به سبب للحياة، كما أنَّ الرُّوح الَّتي تنفخ في الجسم سبب لحياته، وحياة النَّاس بالرُّوح الموحى به – أي القرآن - حياة معنويَّة فهي حياة العقول والأفكار، وحياة المشاعر والأحاسيس؛ و" لأنَّه إذا حلَّ في القلب حَيِي القلب بحياة الإيمان، كما أنَّ الرُّوح الحقيقيَّ إذا حلَّ في الجسد حَيِي بحياة الأبدان". [57]وفي ذلك إيحاء ببيان أهمِّيته لحياة القلوب، فالقرآن الَّذي ينزل من عند الله - سبحانه وتعالى- روح فيه إحياء لقلوب الخلق، فالقلوب الميتة بالكفر يحييها وحي الله سبحانه، والقرآن والنُّبوَّة، فكما يُنزل الغيث من السَّماء ليحيي به الأبدان، كذلك يُنزل من السَّماء القرآن ليُحيي به الإنسان.

وجمال التَّعبير بالاستعارة يتأتَّى كذلك من التَّناسب والتَّناسق بين لفظة (روحاً) المستعارة مع ما قبلها، ومع طبيعة لفظ الوحي نفسه، فإذا نظرنا إلى موقع الكلمة المستعارة في قوله تعالى: ﭼ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﭼ [الشورى 52، 53] نجد هاتين الآيتين مسبوقتين بذكر الوحي وكيفيَّته في قوله تعالى: ﭼ ﯿ ﰀ ﰁ ﰂ ﰃ ﰄ ﰅ ﰆ ﰇ ﰈ ﰉ ﰊ ﰋ ﰌ ﰍ ﰎ ﰏ ﰐ ﰑ ﰒ ﰓ ﰔ ﰕ ﰖ ﰗ ﰘ ﰙ ﰚ ﭼ [الشورى: 51] وهنا وُجِّه الخطاب بأسلوب الالتفات إلى رسول الله ρ في قوله ﭼ ﭑ ﭒ ﭓ ﭼ يعني أنَّه - سبحانه - أوحى إلى عبده محمَّد ρ بنفس الطَّريقة الَّتي كان يوحي بها إلى النَّبيِّين من قبل، ولم يقل - سبحانه - وكذلك (أرسلنا) بدلاً من (أوحينا) لما في

(56) تلخيص البيان في مجازات القرآن، الشريف الرضي، ص 290.

(57) الإشارة إلى الإيجاز، العز بن عبد السلام، ص 75.

الإيحاء من معنى لطيف، فهو يدلُّ على الخفاء الَّذي لا يدلُّ عليه الإرسال، والوحي إلى النَّبيّين يكون بطريقة خفيَّة بحيث لا يشعر من حولهم بما أوحي إليهم به، وبيَّن– سبحانه- أنَّ الموحى به روح من أمره، والرُّوح أنسب بالوحي لما في الرُّوح من اللُّطف والخفاء، وهذا يرجّح تفسير الرُّوح هنا بالقرآن لا جبريل، فإنَّ الموحى به هو القرآن، وحمله على جبريل- كما يقول بعض من المفسِّرين-[58] لا يتأتَّى إلَّا إذا فسِّر أوحينا بأرسلنا.

الخاتمة

حاولت هذه الدِّراسة الوقوف على بعض نماذج الاستعارة التَّصريحيَّة الأصليَّة دون القصد إلى الحصر، أو التَّقيُّد بمصطلح قديم أو حديث، إلَّا بما يخدم غرض البحث، الَّذي مداره بيان وظيفة الاستعارة، وأسرارها البلاغيَّة، مع محاولة إبراز جماليَّات تلك الاستعارات. وقد انتهت إلى نتائج من أهمِّها:

– وجود حكمة تقتضي دائماً العدول إلى الاستعارة، فجاءت كلُّ استعارة في القرآن لتحقيق مقاصد بلاغيَّة وجماليَّة لا نجدها في التَّعبير الحقيقيّ.

– التفت بعض الأوائل والمعاصرين، إلى أنَّ القرآن لا يستعير من أجل الاستعارة، بل ينحو إلى تأدية عدد من الفوائد والأغراض الَّتي لا تؤدِّيها الحقيقة، ممَّا يجعل الاستعارة أولى من الحقيقة بالاستعمال في هذه المواضع الَّتي جاءت فيها.

– وظيفة الاستعارة وجمالها أمران متداخلان، لا يمكن الفصل بينهما في كلِّ الآيات القرآنيَّة الَّتي جاءت فيها الاستعارة.

– من أبرز وظائف الاستعارة القرآنيَّة، وأسرار جمالها الَّتي وقف عليها البحث: أداء المعاني بدقَّة، الإيجاز مع الإيحاء بمعانٍ إضافيَّة،

(58) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، 1 / 156.

التَّصوير بالتَّشخيص أو بالتَّجسيم، المبالغة في أداء المعنى، توكيد المعنى المراد، البيان والإيضاح، إضفاء الجدِّة (تجديد معاني الألفاظ)، تحسين المعرض، التَّأثير في السَّامع، رسم نموذج بشريٍّ.

المصادر والمراجع

[1] الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، تحقيق: محمَّد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1394هـ / 1974م.

[2] إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم (تفسير أبي السعود)، محمَّد بن محمَّد العمادي، دار إحياء التراث العربي – بيروت ، (د. ت).

[3] أسرار البلاغة، الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمَّد، قرأه وعلق عليه: محمود محمَّد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، (د. ت).

[4] إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، النُّورسي، بديع الزمان سعيد، تحقيق: إحسان قاسم الصالحي، الطبعة الثالثة بمصر 2002 م.

[5] الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز، العز بن عبد السلام، أبو محمَّد عز الدين بن عبد العزيز بن عبد السلام، دار الحديث، القاهرة ، (د. ت).

[6] أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، الشنقيطي: محمَّد الأمين بن محمَّد المختار بن عبد القادر، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت 1415 هـ / 1995م.

[7] الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، بنت الشاطئ ، عائشة محمَّد علي عبد الرحمن، دار المعارف، الطبعة الثالثة ، (د. ت).

[8] البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، محمَّد بن يوسف، دار الكتب العلمية، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرين، الطبعة الأولى، بيروت 1422 هـ / 2001 م.

[9] البحر المديد، ابن عجيبة، أحمد بن محمَّد بن المهدي، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الثانية 2002 م / 1423 هـ.
[10] تاريخ آداب العرب، الرَّافعيّ، مصطفى صادق، دار الكتاب العربي، (د. ت).
[11] تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل، الخازن، علاء الدين علي بن محمَّد بن إبراهيم، دار الفكر - بيروت 1399 هـ / 1979 م.
[12] تفسير الشعراوي – الخواطر، محمَّد متولي الشَّعراوي، مطابع أخبار اليوم، 1997 م.
[13] تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر، تحقيق: محمود حسن، دار الفكر 1414 هـ /1994م.
[14] تلخيص البيان في مجازات القرآن، الشَّريف الرَّضيّ، أبو الحسن محمد بن أبي أحمد الحسين بن موسى، دار الأضواء - بيروت (د. ت).
[15] جامع البيان، الطَّبريّ، محمَّد بن جرير بن يزيد، تحقيق: أحمد محمَّد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1420 هـ / 2000 م.
[16] الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم، دار الجيل - بيروت و دار الآفاق الجديدة – بيروت، (د. ت).
[17] الجدول في إعراب القرآن الكريم، محمود بن عبد الرحيم صافي، دار الرشيد، دمشق - مؤسسة الإيمان، بيروت، الطبعة الرابعة 1418 هـ.
[18] روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود، دار إحياء التراث العربي– بيروت، (د. ت).
[19] شرح المعلقات السبع، الزوزني، أبو عبد الله الحسين بن أحمد، دار صادر، بيروت، (د. ت).

[20] الصناعتين، أبو هلال العسكريّ، الحسن بن عبد الله بن سهل، تحقيق علي محمَّد البجاوي ومحمَّد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت 1419 هـ.
[21] الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، العلويّ، يحيى بن حمزة، المكتبة العصرية، بيروت الطبعة الأولى 1423هـ.
[22] غرائب القرآن ورغائب الفرقان، النيسابوري، نظام الدين الحسن بن محمَّد بن حسين، تحقيق: الشيخ زكريا عميران، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى 1416 هـ / 1996 م.
[23] في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق - بيروت- القاهرة، الطبعة السابعة عشر 1412 هـ.
[24] الكشاف عن حقائق التنزيل، الزَّمخشريّ، أبو القاسم محمود بن عمر، تحقيق:عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي – بيروت،(د. ت).
[25] المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطيَّة، أبو محمَّد عبد الحق بن غالب بن عطيَّة الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمَّد، دار الكتب العلمية - لبنان، الطبعة الأولى 1413هـ / 1993م.
[26] مفاتيح الغيب، الفخر الرَّازيّ، فخر الدين محمَّد بن عمر، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية - بيروت، 1421هـ / 2000 م.
[27] مفتاح العلوم، السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمَّد بن علي، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية 1407 هـ / 1987 م.
[28] مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمَّد بن المفضل، دار القلم، دمشق، (د. ت).
[29] المفضليات، المفضل الضبي، محمَّد بن يعلي، تحقيق أحمد محمَّد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف، الطبعة الثامنة، (د. ت).
[30] من بلاغة القرآن، أحمد أحمد بدوي، نهضة مصر، القاهرة، 2005 م.

[31] الموازنة بين الطائيين، الآمدي، أبو القاسم الحسن بن بشر، تحقيق السيد أحمد صقر، طبعة دار المعارف 1961م.
[32] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي، برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت 1415هـ / 1995 م.
[33] النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، الرماني، على بن عيسى بن على، تحقيق: محمَّد خلف الله و د. محمَّد زغلول سلام، دار المعارف الطبعة الثانية 1968م.
[34] وظيفة الصُّورة الفنِّيّة في القرآن، عبد السلام أحمد الراغب، فصلت للدراسات والترجمة والنشر – حلب، الطبعة الأولى 1422 هـ / 2001 م.

Originally Metaphor in Quran Models of Declarative (Function and Beauty)

Dr. siddig Mustafa Elrayah
Associated professor
Arabic department –Faculty of arts –University of Khartoum

Abstract. The research has dealt with models of the original metaphor declarative, in purpose to clear the function of metaphor statement, and its secrets, with an attempt to highlight the aesthetics of those metaphors.

The research found the following results:

- Using metaphor in Quran comes for purpose not found in the real expression.
- Scholars pointed out some of the functions of metaphor compared with real expression.
- The function of metaphor and its aesthetics are intertwined, in Quran.

- Functions and secrets of the metaphor in Qur'an: the performance of meanings accuracy, brevity and suggesting additional meanings, imaging, over-discharge sense, emphasis intended meaning, the statement and clarification, renewal of the meanings of words, improve the show, influence the listener, drawing a human model.